دور الإمام الغزالي في توحيد الأُمّة ونبذ الفُرقة للنهوض بها من الهزيمة إلى الانتصار

إعداد

الدّكتور جبر خضير البيتاوي

بكليّة الآداب، جامعة النجاح الوطنية

فلسطين 2012

ملخّص البحث

يعتبر أبو حامد الغزالي من أعظم مفكّري الإسلام، نظرا للتّأثير الكبير الذي أحدثه، ولا زال في نفوس المسلمين. فهو مثل كبير للعظماء الّذين يبرزهم القدر، فيحركون سواكن المجتمعات. ولهذا رغبت في دراسة فكر الإمام أبي حامد الغزّالي، والمنهج الذي أتبعه في تغيير أوضاع الأمة في زمانه الذي عاشه، من صراعات مذهبيّة، وانقسامات، وتشرذمات حزبيّة، بين الفرق والأحزاب الإسلاميّة.

وقد أدّى هذا الصّراع إلى انقسامات فكريّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، بل وحروب ومعارك، نتيجة لهذه الصّراعات، بين الدّولة العبّاسيّة في العراق والشّام، والتي كانت تتبنى المذهب السني، والدّولة الفاطميّة في مصر، التي كانت تسير على المذهب الشيعي، الأمر الذي مهد لإضعاف المسلمين، من جهة، وتفرّقهم من جهة ثانية، كذلك هزيمتهم أمام حملات الإفرنج، التي أتت من أوروبا عبر بجيوش جرّارة. وقد أدت هذه الانقسامات والصّراعات، إلى احتلال الفرنجة لبيت المقدس خاصّة، والمشرق العربي والإسلامي عامّة، سنة 492هـ/1099م.

وهذا البحث يحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة:

- ما هي الأسباب التي أدّت إلى هذه الصّراعات المذهبيّة؟
- كيف تحوّلت هذه الاختلافات الحزبيّة، إلى صراع بين تلك الفرق والمذاهب؟
- كيف أثّرت هذه الصّراعات على الأوضاع الفكريّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والعسكريّة؟
- ما هي الطرق والمناهج والأساليب التي اتّبعها الغزالي في توحيد جهود المسلمين؟
- كيف أسهم أبو حامد الغزالي في توحيد المسلمين، والانتقال بهم من التّفرقة إلى الوحدة، ومن الهزيمة إلى الانتصار؟

وتكمن إشكالية هذا البحث في أنّ أبا حامد الغزالي، كان يرى أن فساد أحوال المسلمين كبير ومتعدد، ففساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حبّ الجاه والمال عليهم، والّذين لا يقدرون على الأراذل، فكيف يقدرون على الملوك

والأكابّر؟ لقد كان منهج الغزالي يقوم على تغيير أحوال العلماء والسّلاطين والرّعايا. وقد فرق بين علماء الآخرة وبين علماء السّوء علماء الدّنيا، وبدأت محاربته في التّعصب المذهبي، وبين البحث كذلك خطته في محاربة التّيارات الفكريّة المنحرفة.

وهكذا فقد وضح البحث على أنّ منهج الغزالي قام على أصلاح الأحزاب، والسّلاطين، والرعية في زمانه، وكان هذا المخطط الإصلاحي يقوم على اعتماد أسباب القوّة، والمنعة، والوحدة، والانتصار. وهذا المنهج أطلق عليه «النهوض الشمولي»، وسنلاحظ في هذا البحث تشابها كبيرا بين الأحوال التي عاشها أبو حامد الغزالي وما نعيشه اليوم. وهذا المنهج الذي سار عليه، هو الذي تحتاجه الأمة اليوم، للانتقال بها من حالة الضّعف إلى القوّة، ومن التّشرذم إلى الوحدة والجماعة، ومن الهزيمة إلى الانتصار، لا سيما ونحن نعيش ربيع الثورات العربية التي تمهد لقيام دولة الخلافة الإسلامية المنشودة.

مقدمة البحث

يعدّ الغزالي من أعظم مفكري الإسلام، نظرا للتأثير الكبير الذّي أحدثه ولا يزال في نفوس المسلمين، فالغزالي مثل كبير العظماء الذين يبرزهم القدر فيحركون سواكن المجتمعات، بما يحدثون فيها من تغيير في بصماتهم على حياتها المعنوّية والمادّية والسياسَّية والثقافية والاجتماعية.

ولهذا فقد رغبت في تناول منهج المعرفة عند الغزالي، ودوره في نهوض المسلمين. والواقع أن الظروف الخاصَّة والعامة التي أحاطت بالغزالي قد حددت مساره الفكري إلى حد كبير.

« وُلد أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي بطوس عام 450هـ/1058م، ولقبه حُجّة الإسلام، زين الدين الطوسي، الفقيه الشافعي، تتلمذ في مبدأ أمره بطوس على الشيخ أحمد الرازاكاني»[1]فلقد كان والد الغزالي فقيراً صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده في غزل الصوف، وكان في وقت فراغه يطوف على المتفقهة ويجالسهم ويستمع إليهم، ويتوفر على خدمتهم، ويجدُّ في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع، وسأل الله تعالى أن يرزقه ابنا ويجعله فقيهاً واعظاً[2]وعهد والد الغزالي به وبأخ له، أصغر منه إلى صديق متصوف وأوصاه أن يتعهدهما بالتربية والتعليم.

درس الغزالي الفقه في صباه بإحدى نواحي طوس، ثم انتقل إلى جرجان حيث درس على يد الإمام أبي نصر إسماعيل، بعدها انتقل إلى نيسابور عاصمة السلجوقيين آنذاك، وهي مدينة العلم بعد بغداد فلازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني قال عنه «الغزالي بحر مغدق» فلقد أُعجب نظام الملك الوزير وسرّ بوجوده، وناظر الكبار بحضرته، فانبهر له، وشاع أمره فولاه النظام تدريس نظامية بغداد فقدمها بعد أربعمائة وثمانين للهجرة. وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وعظم جاه الرجل لكنّه مال عن المال والجاه، ورفض الرئاسة والإنابة إلى دار الخلود

1 - ابن خلكان: وفيات الأعيان 226/4

2- السبكي: طبقات الشافعية 205/6

والإخلاص وإصلاح النفس فحج في وقته وزار دمشق وبيت المقدس ومصر واستمر عشر سنوات في حياة الزهد والاعتكاف بعيداً عن الجاه والسلطان، إذ خرج من بغداد سنة 488هـ/1094م، وهذه فترة مهمة ونعني بها فترة الزهد، ولقد صنف حوالي خمسمائة مصنف.[1]

وفي هذه الفترة الأخيرة يقول: «وأما الآن فإني أدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه» توفي الغزالي في طوس عام 505هـ/1111م.

ويمكن تقسيم حياة الغزالي إلى ثلاثة أقسام:

1. الفترة التي سبقت شكه.
2. فترة الشك.
3. فترة الاهتداء والطمأنينة.

الصراع السياسي:

ولقد تميز العصر الذي عاش فيه الغزالي بكثرة الفتن والاضطرابات والأعاصير والمنازعات السياسية بين الخفاء والأمراء، ففي بغداد خلافة إسلامية ضعيفة تنازعها الدولة الفاطمية الشيعيّة . ومن تدابير القدر أن السنة التي ولد فيها الغزالي 450هـ/1058م، شهدت استيلاء القوات الفاطمية على بغداد بقيادة البساسيري زعيم الباطنيين، وفي ذلك يقول ابن الأثير عن أحداث سنة 450هـ/1058م. «ثم إن البساسيري وصل إلى بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه أربعمائة غلام على غاية الضر والفقر وخطب البساسيري بجامع المنصور للمستنصر بالله العلوي، واستمر إلقاء الخطبة على منابر بغداد باسم المستنصر الفاطمي نحو أربعين أسبوعا.[2]

بالإضافة للصراع بين السنّة والشّيعة-السالفة الذكر- كانت هناك نزاعات بين

1- الذهبي: سير أعلام النبلاء 332/19

2- ابن الأثير: الكامل 641/9

أمراء السلاجقة أنفسهم بعد وفاة السلطان ملكشاة عام 485هـ/1091م، والتي كانت بداية لتفكك دولة السلاجقة « ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاة فنازع آخاه برقياروق، وحدثت بينهما حروب كثيرة دامت نحو اثنتي عشرة سنة، إلى أن توفي برقياروق، واستقرت السلطنة لمحمد»[1] هذا في الشام، أما في مصر فكان أُمراؤها في منازعات فيما بينهم من أجل السلطة يقول ابن تغري بردي» ولما استهلت سنة ثمان وثمانين خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وافتكين، فكانت بينهم حرب شديدة بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل بمن معه، ورجع إلى القاهرة منهزما، فخرج ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري».[2]

هذه الانقسامات والمنازعات العنيفة بين أُمراء المسلمين فيما بينهم، أدت إلى تخلخل المجتمع الإسلامي، مما أدّى إلى كثرة الفتن بين أبناء المدينة الواحدة، «ثم دخلت سنة ست وثمانين وأربعمائة، فوقعت الفتنة ببغداد بين العامة وقصد كل فريق الفريق الأخر وقطعوا الطرقات بالجانب الغربي، واتصلت الفتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة».[3]

لقد جاء الغزالي على قدر من الله، في ظل منازعات سياسية واضطراب فكري وتصارع حزبي, كذلك سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إلى نفوذ في سلطة الفرق الباطنية التي كثر روادها نتيجة الأوضاع الشاذة، فمن ذلك ما ذكرناه عن البساسيري حينما استولى على بغداد. وأما البساسيري، وما اعتمده في بغداد فإنّه رَكب يوم عيد الأضحى وألبس الخطباء والمؤذنين البياض، وكذلك أصحابه، وعلى رأسه الألوية المصرَّية، وخطب للخليفة المصري، والروافض في غاية السرور، والآذان لسائر العراق على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان بغداد انتقاما عظيما، وغرق خلقا ممن كان يعاديه، وبسط على الآخرين الأرزاق ممن كان يحبه ويواليه.[4]

1- ابن الأثير: التاريخ الباهر ص12.

2- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 14/5

3- ابن الأثير: الكامل 226/10

4- ابن كثير: البداية والنهاية 78/12.

الاضطرابات الاجتماعية:

أما الناحية الاجتماعية فقد كثر النهب والسرقة، وكثرت الزلازل، وفي ذلك يقول ابن كثير « وفيها أي في سنة 450هـ/1058م وقع بَرَدٌ بأرض العراق أهلك كثيرا من الغلات، وقتل بعض الفلاحين وزادت دجله زيادة كثيرة، وزلزلت بغداد في بهذه السنة قبل الفتنة بشهر زلزالا شديداً، فتهدمت دور كثيرة، ووردت الأخبار أن هذه الزلزلة، اتصلت بهمذان ، وواسط، وتكريت، وعانه. وذكر أن أكثر الطواحين وقفت من شدتها، وفيها كثر النهب ببغداد، حتى كانت العمائم تخطف عن الرؤوس، وخطفت عمامة الشيخ أبي نصر بن الصباغ وطيلسانه، وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة.[1]

إنّ إعطاء هذه الصورة تعطينا دلالة على سوء الأوضاع الاجتماعية الذي عاش فيه الغزالي، والتي أسهمت كلها في تشكيل حياته الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية. وهذه الأوضاع الشاذة قد أسهمت في إضعاف كيان المسلمين مما سهل في هزيمة المسلمين أمام الهجمات الصليبية التي بدأت عام 490هـ/1097م.

كذلك يلاحظ أن تلك الأوضاع الشاذة، قد أمدت الغزالي بزاد معرفي واسع بواقع الأمة، والتي رأى من خلالها أن تغيير هذا الواقع لا يمكن أن يتم إلا من خلال التغيير من الداخل. إضافة إلى ذلك فقد جاءت الحملات الصليبّية إلى المشرق الإسلامي تحمل في داخلها حقدا قويا ضد الإسلام وأهله. نجد ذلك أن الصليبيين ما دخلوا بلدة أو مدينة إلاّ أحدثوا في أهلها قتلاً أو تشريداً أو ذبحاً. إضافة إلى ذلك صادفت تلك الحملات تشرذما سياسيا واجتماعيا، كل ذلك أعطى الغزالي دوراً كبيراً في منهجه الإصلاحي هذا، والذي من خلاله استطاع أن يسهم في تغيير واقع الأُمة المزري إلى موقف قوة وعزه , حتى جاء عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي فوحدا الأمة بمساعدة علماء الأمة المخلصين أمثال الغزالي وغيره.

1- ابن كثير: المصدر نفسه 78/12.

الصراعات الفكرية والمذهبية:

أما الأوضاع الفكرية التي واجهها الغزالي فكانت الصراعات المذهبية، والتعصب بين الفرق، وظهور الروح الحزبية بين الفرق والمذاهب الإسلامية، وتنوع المدارس الفكرية، نتيجة الانقسامات السياسية، فإنّه رغم هذا الضعف السياسي فقد كان هناك نهضة في مجال التعليم والفكر، فقد حرص الأُمراء والوزراء أن يقرّبوا إليهم عددا من المفكرين في شتى نواحي المعرفة، إمّا لرغبتهم في العلم، أو لتزيين مجالسهم بالعلماء، أو ذوي الجاه والنفوذ فالقاضي الماوردي (ت 450هـ/1058م) ذكر أنّه ألف الأحكام السلطانية تلبية لرغبة من لا يرد له أمراً.[1]

لقد تميز هذا العصر بكثرة العلماء والدارسين فلقد عدّ لنا « النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس».[2]

بأن الشّام قد احتوت حوالي ثلاثمائة مدرسة. ومن الأُمور التي تميز بها هذا العصر سهولة التنقل بين الممالك والمدن، وقد تعددت العواصم، وكثرت إليها رحلات العلماء والأدباء، فمنهم من كان يقصد القاهرة أو الري، أو شيراز، أو بغداد، أو غيرها من البلاد، وكانت المدن تتنافس في اجتذاب العلماء.[3]

هذه الأوضاع الفكرية هي التي عايشها الغزالي والتي تمثلت بالتعصب المذهبي وذلك نتيجة للأخطاء المنهجية في العالم الإسلامي، التي جعلت أتباع هذه الفرق تتعصب لمذهبها، وأصبح الولاء للمذهب. وهذه الأخطاء تركزت في أن ولاء هذه الجماعات كانت لانتماءاتها المذهبية أكثر من انتمائها للفكرة التي حملتها الأُمة التي تنسب إليها. وعن الأصل في نشوء تلك الفرق والمدارس والجماعات والأحزاب يقول عنها « لقد نشأت هذه الجماعات في الأصل مدارس فكرية مثل مدرسة سفيان الثوري، ومدرسة أبي حنيفة، ومدرسة الشافعي، ومدرسة أحمد بن حنبل، ولم تكن هذه المدارس إلاّ تخصصات في إطار الرسالة الإسلامية الواحدة، وكان غالبية رجالاتها

1- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص3

2- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ص7، المقدمة وما بعدها..

3- عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي، ص17.

قد تتلمذ بعضهم على بعض، وربطتهم روابط المحبة والاحترام المتبادل».[1] وحصل أن أصبحت تلك المذاهب بعد ذلك طوائف اجتماعية متباينة الفكر والحزب، وظهر التعصب المذهبي وظهور المنازعات بين أصحاب المذاهب منها الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة، أحداث عام 475هـ/1082م».

يقول ابن الأثير: «ورد إلى بغداد هذه السنة، الشريف أبو القاسم البكري، المغربي، الواعظ، وكان أشعري المذهب وكان قد قصد نظام الملك، فأحبه ومال إليه، وسيره إلى بغداد وأجرى عليه الجراية الوافدة، فوعظ بالمدرسة النظامية وكان يذكر الحنابلة، ويعيبهم، ويقول (وما كفر سليمان ولكن الشّياطين كفروا) والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا. ثم أنه قصد يوما دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني بنهر القلائين فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدت إلى الفتنة وكثر جمعه، فكبس دور بني الفداء، وأخذ كتبهم».[2]

ولقد وصل بهم الأمر أي بأصحاب المذاهب أن يؤلفوا كتبا يتهمون خصومهم بالكذب، فألف ابن عساكر كتاب أسماه، (تبيين كذب المفتري) يقول في مقدمته: «فمن ذم بعد وقوفه على كتابي هذا حزب الأشعري فهو مفتر كذاب عليه ما على المفتري.[3]

ويلاحظ أن داء النعرة الحزبية لم تسر في العامة، بل إلى مشايخ تلك الأحزاب والمجتمعات، كما ذكرنا سابقا، كما يقول ابن الجوزي:» وقد وصل الأمر بتلك الأحزاب أن الحنابلة خرجوا صائحين: حين قدم أحد رجالات الأشاعرة المشهورين، وهو أبو الفتح الإسفرائيني، واتخذ جامع المنصور مكانا للدرس والوعظ فالتف الناس حوله، وتأثروا به، فلم يرق ذلك للحنابلة فجمعوا أنفسهم، ودخلوا على الإسفرائيني وعنفوه، ثم خرجوا صائحين» هذا يوم حنبلي، لا شافعي ولا أشعري».[4]

هذا الواقع المأساوي لحال علماء ذاك العصر يعطي دلالة للحال الذي صادفه

1- ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص16.

2- ابن الأثير: الكامل 124/10

3- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص 30

4- ابن الجوزي: المنتظم 7/10

الإمام الغزالي، فكما يذكر ابن الأثير أنَ داء الحزبية الذي سرى في الفرق الإسلامية لم يكن مبعثه العامة فقط، والذين كان هدفهم من الدخول في الأحزاب مآرب دنيوية كذلك من أجل ترويج سلك بين أفراد تلك الأحزاب .والأدهى من ذلك أنَ هذا الأمر ونعني به داء الحزبية والتشرذم الفكري سرى بين مشايخ تلك الفرق الإسلامية، وما أدل من ذلك من أنهم بدأوا يؤلفون كتبا تتهم الآخرين بالكذب والخروج من الدين.

إنّ تلك المظاهرة تعطينا دلالة واضحة لواقع المأساة التي وصلت إليها الأمور. فإن شعار مظاهرة تخرج من بغداد «هذا يوم حنبلي لا شافعي ولا أشعري» تعطي دلاله لواقع التعصب الأعمى المقيت الذي صادفه الغزالي، كذلك يبين أهمية المنهج الذي صار عليه الغزالي والذي يتمثل في الخروج من قمقم الحزبية، والدخول في عالم التصور الإسلامي الأشمل حيث القرآن والسنة مرجعية المسلمين لا الأحزاب ولا الأفراد هم المرجعية إنما مرجعية الإسلام هذا القرآن العظيم وهو دستور الآمة الخالد.

ومن هنا نلاحظ أن جيل صلاح الدين الذي رباه هذا العالم هو الذي استطاع أن يخرج الأمة من حياة الضعف والاستكانة، إلى حياة العزة والقوة. ومن حياة التشرذم والتقوقع إلى حياة شمولية الأمة حيث أُمة واحدة، ذات دستور واحد وقيادة واحدة وهذا هو الطريق الذي مهده الإمام الغزالي في دعوته الشمولية إلى نهضة الأمّة نهوضا شموليا بعيدا عن الحزبية والتقوقع.

الفرق الباطنية:

ومن الأوضاع الشاذة التي عاشها الغزالي (الباطنية) وهي من أخطر الفرق التي نسبت للإسلام والتي واجهها الغزالي « الباطنية» فهؤلاء يرون أنّ الإسلام ظاهر وباطن، وأنّ باطنه وحقيقته لا يعرفه إلا هم، ومن ذلك قولهم: «فالزكاة مفروضة في كل عام مرة وكذلك الصّلاة: من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار.[1]

1- ابن أبي الفضائل: كشف أسرار الباطنية، ص24.

ولقد تميزت هذه الفرقة بالإباحية والانحراف الخلقي، فالجنس مباح دون قيود، وفي ذلك يقول بن أبي الفضائل عنهم، إذ أنه عاش بينهم متخفيا فألف عنهم كتاب» كشف أسرار الباطنية» وفيه يقول:»حتى إذ جن الليل، ودارت الكؤوس، وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوة الملعونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب وأطفؤوا السرج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده، ثم يأمر المقتدي زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون وجميع المستبيحين».[1]

هذه هي الأوضاع الفكرية والسياسية والاجتماعية والحزبية التي عاشها الغزالي، وكانت في عصره. ولكن الغزالي، وهو قدر الله الذي يسره لنهوض الأمة استطاع أن يتغلب على كُل ذلك، وذلك بفضل النشأة ، والتربية التي تلقاها في صغره، كذلك المنهج المعرفي الذي سار عليه مما جعله وحيد عصره في هذا التفكير ونسيج دهره في هذا المنحنى.

دور الغزالي الإصلاحي.

فكيف استطاع الغزالي أن يُنشئ منهجه في ظل هذه الظروف وما هو المنهج الذي سار عليه؟ وما هو الدور الإصلاحي الذي قام به الغزالي من خلال فكرة ومنهجه التجريبي. « لقد كان الغزالي يمثل دائرة معارف عصره . وكان أحد العمالقة الذين عرفهم تاريخ العلم والثقافة في تراثنا السخي العريض.[2]

كذلك فلقد كان لوعيه وإدراكه للواقع، الأثر الكبير في توجيه فكره، وابتعاده عن منزلقات الفرق والأحزاب الإسلامية، فيتقن أنّ طريق الخروج من هذا الواقع الشاذ، لا يمكن أن يكون إلاّ بالنهوض الجمعي لهذه الأُمة، من خلال بعث طلائع العلماء الربانيين، ليكونوا قدوة الأمة، وعبر مجاهدة قوى الشر، والشرنقة، والتقزيم، والانتكاسة، والارتكاسه.

1- ابن أبي الفضائل: المصدر نفسه، ص30

2- يوسف القرضاوي: الإمام الغزالي، ص 17.

لهذا نجد أن مؤلفات الغزالي أعادت لعلوم الإسلام روح التحرر من الحِزبية. فدارس الفقه الإسلامي يبحث عن ذلك من خلال مؤلفاته الكثيرة في البسيط والوسيط والوجيز ووازن بين الأقوال، واختار ما يراه صحيحاً أو أصح وأقوى، كما أنه حاول أن يُفقه التصوف ويُصوف الفقه.[1]

والأصوليون يدرسونه من خلال كتبه الأصولية المنخول، والمستصفى، وتهذيب الأصول، والمشتغلون بالفلسفة والكلام والمنطق يبحثون عن ذلك من خلال كتبه: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، والقسطاس المستقيم، وغيرها.

والباحثون في التصوف والأخلاق والتربية يدرسونه من خلال موسوعته الكبرى «إحياء علوم الدين» ومنهاج العابدين»، «وبداية الهمذية» ومعراج السالكين «وأيها الولد» والباحثون في معرفة الحق والفرق المختلفة يجدون ذلك من خلال كتاب، «فضائح الباطنية» و «حجة الحق» و «مفصل الخلافة» وغيرها. ولعل من أبلغ ما قيل في تصوير هذه الثقافة الموسوعية للغزالي كلمة المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في وقته: «أمّا إذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدراته وقيمته، يخطر بالبال الغزالي الأصولي، الحاذق، الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها: والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالي المربي، والغزالي الصوفي الزاهد، وإن شئت فقل: إنّه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كُلّ شيء، نهج إلى جميع فروع المعرفة».[2]

1- يوسف القرضاوي: الإمام الغزالي ص15.

2- محمد مصطفى المراغي: مقدمة كتاب الغزالي تأليف أحمد فريد الرفاعي 9/2.

لقد تميز منهج الغزالي في إصلاح المسلمين، اعتمادا على الإصلاح الفكري والنفسي وهو مبدأ قرآني واضح» إنّ الله لا يُغير ما بقوم حتَّى يُغيروا ما بأنفُسهم.[1]

إضافة لإدراكه الواقع السياسي الممزق. والصراع الحزبي المرير، ومعرفته بالسنن الكونية في التغيير، فرض على الغزالي هذا النوع من الإصلاح. هذا المنطلق عززه « خبرات الغزالي نفسه، بعد أنْ رأى بعينيه مصير الإصلاح السياسي الذي بدأ بقيادة السلاجقة، وبعد أن تجرع مرارة الخيبة والفشل اللذين تجرعهما مع أقرانه الذين شاركوا في المرحلة الأولى للإصلاح في ظل هذه القيادة».[2]

لقد استوعب الغزالي واقع المسلمين، وما آلت إليه الأُمة، من انحراف في المفاهيم العقائدية والتّاريخيّة والاجتماعية، واتخذ لنفسه منهجا يقوم على الاشتغال بالأمراض الأساسية التي نخرت في داخل المجتمع الإسلامي، أهمها التعصب المذهبي والصراع بين الفرق الإسلاميّة، والمذاهب الفلسفيّة والباطنيّة، وقد أفاد الغزالي من تعرفه على الفرق الإسلامية المختلفة، ومعايشته لهم ولكنّه وضع لنفسه منهجا متميزاً.

الأُسس العامة لمنهج الغزالي.

لقد اتبع الإمام الغزالي أسسا منهجية في سبيل الوصول إلى المعرفة، وأهم هذه الأسس:

أولاً: أن يكون البحث عن الحقيقة غاية كُلِّ عالم.

لقد رأى الغزالي أن الهدف من الوصول إلى المعرفة، يجب أن يكون البحث عن الحقيقة، ويجب أنْ يكون هذا الأمر هو الغاية والمبتغاة من المعرفة، وأُسسها المختلفة ولهذا نراه يقول: «اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم وألان للحق قيادكم أنّ اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلاّ الأقلون، وكل فريق

1- سورة الرعد آية 11.

2- ماجد عرسان الكيلاني: وهكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص86.

يزعم أنَّه الناجي (كل حزب بما لديهم فرحون)[1]هو الذي وعدنا به سيد المرسلين، صلوات الله عليه، وهو الصادق المصدوق حيث قال: ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة.[2]

إنّ الأساس الذي بناه لنفسه يقوم على عدم التقوقع الحزبي بل نراه يخوض تلك التجارب من خلال التعرف والدراية، الأمر الذي جعله يبتعد عن الفرق المتناحرة، والمذاهب المتصايحة، بل عاش حياة البحث والتنقيب عن الأفضل.

ولقد كان دأب الغزالي البحث عن حقيقة الدين التي توصل إلى رضي الله، وإنّ الأُمة عليها أن تقيس أقوالها وأفعالها بمقياس الشرع. فالإسلام هو الحجَّة وليس الرّجال والأحزاب، وهو صاحب المنهج المعروف «يعرف الرّجال بالحقّ، ولا يُعرف الحقُّ بالرّجال». ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته، خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مُظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأَميِّز بين مُحق ومُبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلاّ وأحبُّ أن أطّلع على بطانته، ولا ظاهريًّا إلاّ وأريد أن أعمل حاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلاّ وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلاّ وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلاّ وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبداً إلاّ وأترصد ما يَرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معقلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.[3]

ثانيا: الابتعاد عن الانغلاق والتقليد

ومن أجل الوصول إلى مَنهجية سَليمة ابتعد عن الانغلاق والتَّقليد الذي يُبعد عن الإبداع، ولهذا نراه يقول: «وقد كان التَّعطش إلى دَرك حقائق الأمور دأبي ودِيني

1- سورة الروم آية 32.

2- أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال ص 24.

3- أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال ص24.

من أوّل أمري وَريعان عُمري، غريزة وفطرة من اللّه وضعتا في جبلَّتي لا باختياري وحيلتي، وحتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت عليّ العقائد الموروثة على قرب عهد شره الصبا».[1] هذه هي طريقة أخرى من طرق حصول المعرفة، وهي أنّه جعل من إدراك حقيقته الأمور ديدناً وهدفاً يسمو إليه.

ثالثاً: الغاية من العلم والمعرفة إصلاح النفس والآخرين.

لقد رأى الغزالي بأنّه يجب أن يكون الهدف من العلم إصلاح النفس لصاحبها، وإصلاح الآخرين، وهذا لا يكون إلا بالابتعاد عن العلم الذي يكسب الجاه وفي هذا يقول: «وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سُقوط رتبة الجاه، هذا الآن هو نيَّتي وقصدي وأمنيتي، ويعلم اللّه ذَلك منّي، وأنا أبغي أن أُصلح نَفسي وغيري، وَلست أدري أأصل إلى مرادي أم اقضي دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنّه لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليَّ العظيم، وإنّي لم أتحرك لكنّه حّركني وإنّي لم أعمل، ولكنَّه استعملني فّأسأله أن يُصلحني أولاً، ثُمّ يصلح بي ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يُريني الحقَّ حقا ويرزقني إتباعه، وُيريني البَاطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه».[2]

رابعاً: أن يكون ميزان مقياس حقيقة المعرفة بميزان القرآن، لا ميزان الرأي

وفي ذلك يقول عنه الغزالي: «وأعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله ومكانه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا هم من الملائكة، فان الله تعالى هو المعلم الأول والثاني جبريل والثالث الرسول صلى الله عليه وسلم والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ما ليس لهم طريق إلى المعرفة إلا بهم.

وهكذا فإنَّ الغزالي يُريد أنّ يصفي طرق حقيقة معرفة الإسلام والتي لا بد أن

1- أبو حامد الغزالي: المصدر نفسه ص25.

2- أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال ص76.

تكون من الرسائل التي شرعها ربُّ العزة، وهي طريق الرسل عليهم السّلام وعن طريقهم تعرف الناس على اللّه.

خامساً: الابتعاد عن التعصب لمذهب موروث.

ويرى الغزالي في هذا المنهج أنَّ على الإنسان الابتعاد عن التعصب لمذهب بعينه، لان ذلك يؤدي إلى انغلاق صاحبه، حتى ولو كان من العلماء، فأهل الخواص عليهم أن يتميزوا بصفات تبعدهم عن التحجر حتى يستطيعوا الوصول إلى حقيقة المعرفة.

ولهذا فقد طلب الغزالي من أهل العلم أن يترفّعوا عن خلافاتهم حتى يتحقق لهم الوصول إلى معرفة الحق، وفي ذلك يقول: «أمّا الخواص فإنّي أُعالجهم بأن أُعلمهم القسط وكيفية الوزن بها فيرتفع الخلاف بينهم على قرب، وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال:

أحدهما: القريحة النافذة والفطنة القوية، وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية لا يمكن كسبها.

والثانية: خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث، ومن لم يؤمن بأنك تعرف لا يمكنه أن يتعلم منك.[1]

ويظهر من ذلك أن الغزالي « أراد أن يُعيد لعلماء الأمة، موقعهم الذي يجب أن يكونوا فيه وهو أن يكونوا من أهل البصيرة بالميزان فإنّ صلاح العلماء، صلاح للأمة».[2] وهؤلاء يجادلون بالحكمة التي أشار إليها رب العزة بقوله «أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن».[3]

لقد عرّف الغزالي أُسلوب الدعوة كما يفهمه من خلال هذه الآية بقوله: واعلم أنّ المدعو إلى اللّه تعالى بالحكمة هم قوم العلماء الكاملون وبالموعظة هم قوم وهم أصحاب الفطرة السليمة، والقسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة

1- أبو حامد الغزالي: القسطاس المستقيم ص48

2- (أبو حامد الغزالي: المصدر نفسه ص6

3- سورة النحل آية 125.

وهؤلاء هم المشار إليهم بقوله « وجادلهم بالتي هي أحسن «.

هذه هي الأسس التي يراها الغزالي سبيلا للوصول إلى إصلاح الأمة، والتي لاحظنا من خلالها أنّ الغزالي أراد أن يُعيد للأمة ذاتها الضائعة وذاكرتها المفقودة، أنّها مُحاولة لإعادة الأُمة إلى النبع الصافي وإلى الحقيقة الأبدية.

وهكذا استطاع الغزالي أن يسهم في نهضة الأُمّة التي انغمست في التشرذم والانقسام والانغلاق، والابتعاد عن روح الإسلام، إنها محاولة من الغزالي لإحياء الأمة المَنكوبة بأحزاب عفنة ومشايخ وعلماء انغمسوا في مُتع الدّنيا، وغرتهم الأماني إنّها طريق الحقيقة التي تعيد للعلماء القدوة مكانهم الطبيعي.

إنَّ هذا المنهج الذي سار عليه الغزالي في سبيل الوصول إلى الحقيقة تحتاجه الأُمة في هذه الأوقات كي تسير عليه.

أهداف الغزالي الإصلاحية.

لقد سار الغزالي في منهجه الإصلاحي هذا، بعد التحري الدقيق للواقع ومعايشته لمفاسد الأمة التي وقعت فيها، ولهذا فقد حدد أهداف منهجه الإصلاحي بعدة أمور منها..

أولاً: إنّ منهج الغزالي في إصلاح أحوال الأمة يقوم على إصلاح الأفراد والجماعات، حين ذلك تتهيأ الأُمة إلى نور الحق، فتسير على هدى، وبالتالي، فإنها تستطيع أن تواجه خطر الأعداء فنراه يقول: «فحق على كل مسلم أنْ يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم أهل محلته، ثم أهل بلده، ثم إلى السواد المكتنف ببلده، ثم أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم، وهكذا إلى أقصى العالم.[1]

1- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 336/2.

ثانياً: إنّ الجهاد في سبيل الله ليس دفاعا عن وطن أو قوم أو ممتلكات فحسب وان كانت هذه بعض منافعه وثماره، بل هو وسيلة لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو السبب الحقيقي والأساسي في وجود الأمة المسلمة وهو إخراجها لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله «كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[1]وهكذا يرى الغزالي الذي عاش إبان الحملات الصليبية التي بدأت على المشرق الإسلامي سنة 490هـ/1097م.

«إن المجتمع الذي عاصره الغزالي قد توقف عن حمل هذه الرسالة وفسح للمنكر أن يشيع، واستساغت أذواقه هذا المنكر، فإن أية دعوة للجهاد فيه لن تمرّ إلاّ إذا تبدلت نفوس القوم فيه، وتذوقت العطاء الإلهي الذي يمنحه الله تعالى».[2]

لقد دعا الغزالي إلى الجهاد، لكن الجهاد الذي دعا إليه هو جهاد الصليبين المعتدين, ومنها مفاسد المجتمع، وتشرذم الفرق والأحزاب، ومقارعة صولجان الباطنية، كل ذلك من أجل تهيئة الأمة، فإنَّ الأمة التي تعطل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن أن تكون أُمّة مجاهدة.

ثالثاً: الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية. لقد أرسى الغزالي فهما صحيحا للعقيدة الإسلامية يقوم على إحياء مفهوم الدين الإسلامي، وهذا ما حاول أن يرسمه في كتابه إحياء علوم الدين، وبالتحديد في كتابه الأول الذي يحدد معالم العقيدة الإسلامية من أجل أن تكون عقيدة واضحة حية تكون بمثابة المعيار الحقيقي للإنسان.

رابعاً: تهذيب النفس والإرادة وقد أراد الغزالي من ذلك تهذيب النفس المسلمة من درن عبودية الشهوات والمادة، والأهواء، فلا بد له من التحرر للشهوات والارتفاع في تصرفاته طبقا لما يريد الله سبحانه وتعالى عن قناعة ورضى.

1- سورة البقرة آية 110

2- ماجد عرسان الكيلاني: وهكذا ظهر جيل صلاح الدين ص125

خامساً: جعل من الحب الإلهي دليله ورائده، فأصبحت رسالته عبادة ومحبة، وقد صبغ الوجود، وأفنى ذاته في جلال المعاني، حتى غدا العلم لدية تعبدا، لأنه يريه الله في كل شيء، ولأنه يجعل الطبيعة أمامه محاريب دائمة للصلاة والفكر.

«ولذلك فإنَّ الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف المليك لكان أعظم فرحا، وليس موجودا اشرف من الله سبحانه وتعالى، لأنه شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم أنّه من أثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته».[1]

سادساً: انطلق الغزالي في منهجه الإصلاحي من التصورات الإسلامية الأصلية، فلم يجعل من منهجه الإصلاحي سياسيا، أو اجتماعيا، أو عسكريا فقط، بل رأى أنّ هذا المنهج الإصلاحي ثورة فكرية، تهدف إلى تغيير شامل لواقع الأمة من داخلها، والانتصار على أعدائها.

وهكذا رأينا أنّ الإمام الغزالي قد ركز على الفكر النير الذي تحيا به الأمة، فإنّ الفكر الصحيح الواعي يحيى الأمة، والفكر الفاسد يؤدي إلى انهيار الأمم والشعوب.

سابعاً: اعتمادُ النقد الذاتي: يرى الغزالي أنّه يجب البحث في أسباب الهزيمة والفساد ومعالجته بدلا من التباكي على الهزيمة والفساد، فلقد رأى الغزالي أن ضعف الأمّة في مجالاتها العسكرية والسياسية والاجتماعية تكمن في فساد محتوياتها الفكرية والنفسية، وهو يستمد ذلك من قوله تعالى: « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم».[2]

ثامناً: تطهيرُ المجتمع من الأمراض الفتاكة، الغزالي وهو العالم بأحوال الناس

1- طه عبد الباقي سرور: الغزالي ص49

2- سورة الشورى آية 30

اتجه إلى تشخيص أمراض المجتمع الإسلامي من الآفات التي أصابته، من انحرافات، وزندقة، وطلبا للمال والجاه فقط. ومن الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي واجهها الغزالي:

فساد رسالة العلماء.

لقد رأى الغزالي أنّه لا بد من إصلاح أحوال العلماء لما لهم من الدور الأكبر في إصلاح أحوال الأمة، وقد ركز على العلماء المفسدين فأطلق عليهم عُلماء الّسوء: «وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسنة العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تُساعد أقوالهم وأحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استبدل عليه حبُّ الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال.[1]

يرى الغزالي أنّ رسالة العلماء قد انحرفت عن جادة الصواب فانخرطوا في حب المال ،والجاه ،وهذا يؤدي إلى إضعاف سلطانهم.

لقد أدى هذا الوضع إلى تعطيل رسالة الإسلام الحقيقية ، المتمثلة بالدعوة إلى الله، وأدى وضع العلماء إلى انشغالهم بقضايا هامشية، وكذلك انخراطهم في الوظائف الرسمية، مما أدى إلى ضعف هيبتهم أمام السلاطين، ناهيك عن العامّة.

تاسعا: محاربة الغزالي للتعصب المذهبي:

فلقد أظهر الغزالي الآثار السلبية والمدمرة للتعصب المذهبي ، والتصارع الحزبي، فلقد أصبحت هذه الفرق، والمذاهب، أحزابا وطوائف اجتماعية متباينة الفكر والحزب، ففي حين كانت المدارس الفكرية لا تضم إلا رجال الفكر، وأئمة الفقه، والمشتغلين بالعلم الذين كانت علاقاتهم أخلاق العلماء وفضائل الدين « صار المذهب يضم أخلاطا من الناس ، فكان منهم المشايخ والتجار والطلبة والعوام،

1- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 357/2

وكان بينهم المنتفع الذي يريد المذهب وسيلة لمنافعه، والتاجر الذي يريد أتباع المذاهب زبونا لتجارته، وكانت تربط هؤلاء جميعا رابطة هشة تقوم على المظهرية أكثر من الجوهر.[1]

فقد دعا إلى تبصير هؤلاء المتعصبين بحقيقة أنفسهم، فإذا لم ينفع ذلك معهم. فلا يضيع الإنسان زمانه بإصلاحهم، وفي ذلك يقول: « فأما أنت إنْ أردتّ أنْ تنتزع هذه الحسكة من صدرك، وصدر من هو في حالك، ممن لا تحركه غواية الحسود، ولا تقيّد عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة أشكال أثارها فكر، وهيجها نظر. فخاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر، فإنْ زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي، أو غيرهم، فاعلم أنه بليد، قد قيده التقليد فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان».[2]

وهكذا نرى منهج الغزالي يقوم على إصلاح أحوال الفرق ، والمذاهب ، ودعوتهم إلى الحق، عبر تبصيرهم بأحوالهم، أما إذا كان هؤلاء ممن يتميزون بالبلادة والتقليد، فإنّ على الإنسان أن لا يضيع زمانه معهم. ولقد ميز الغزالي بين أهل الإيمان وأهل الدنيا والمال والجاه، وفي ذلك يقول: «اعلم أن الفكر والإيمان وحدهما، والحق والضلال وسرهما لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل إنما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن أوساخ أوضاع الدنيا، أولا ثم بالرياضة الكاملة، ثانيا، ثم نورت بالذكر الصافي، ثالثاً ثم عذبت بالفكر الصائب رابعا ثم زينت بملازمة حدود الشرع، خامسا، حتّى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوةً.[3]

وأمر آخر نبه إليه الغزالي وهو النّهي عن خصام علماء السوء ومعاداتهم فهي مضرّة لا تُفيد وفي ذلك يقول عنهم « وإياك أنْ تَشتغل بخصامهم وتطمع في

1- ماجد عرسان الكيلاني: وهكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 25

2- أبو حامد الغزالي: فيصل التفرقة ص117

3- أبو حامد الغزالي: المصدر نفسه ص116

إفحامهم فتطمع في غير مطمع، وتصوت في غير مسمع أما سمعت ما قيل:

كُلُّ العداوة قد ترجى مودتها إلاّ عداوة مَنْ عَاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من النَّاس، لما تلا لأجلهم رب العزة آيات اليأس فقال: «وان كان كبر عليك أعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلّما في السماء فتأتيهم بأية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين»[1]وهكذا فإنّ التعصب المذهبي الذي شاع في فترات من العصور الإسلامي والذي انتشر حديثا آفة من آفات العصر الذي نعيشه» ولكنَّ أخطر الآثار الفكرية للحزبية المذهبية هو انقطاع أتباع المذهب على اعتبار أنها الفهم الصحيح المطلق للقرآن والسنة، ولقد أدى حدوث هذه الظاهرة إلى تعطيل الفكر الإسلامي عن الإبداع والاجتهاد.[2]

1- سورة الأنعام آية 35

2- ماجد عرسان الكيلاني: وهكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 21

ميادين الإصلاح عند الغزالي

لم يكن ميدان الغزالي تشخيص أمراض الأُمة، بل اتجه إلى ميادين عملية من أجل النهوض بالمسلمين وذلك عبر الميادين التالية.

أولاً: دستور الغزالي الخلقي.

الغزالي أكبر كاتب خلقي عرفه الفكر الإسلامي، فقد جعل الأخلاق رسالته العليا, وربط الأخلاق بالدين رباطاً لا انفصام له بل جعل الأخلاق هي روح الدين، والغاية منه « وللصلاة آدابها التي هي الروح والهدف، وللصيام برنامجه الخلقي الذي لا يستقيم بدونه، وللنفس والقلب ولكل جارحة من الجوارح، وخاطرة من الخواطر صفة خلقية، ودعوة الى تطهير وتزكية حتى همسات القلب، وسوانح الفكر، يقيدها الغزالي، وينظمها، ويضع لها دستور الكمال.[1]

ويعرف الغزالي الخلق بأنّه إصلاح القوى الثلاثة: «قوة التفكر، وقوة الشهوة، وقوة الغضب»[2]ولهذا دعا الغزالي في دستوره الخلقي هذا، إلى الحكمة، والشجاعة، والعدالة ، والعفة. فالحكمة عنده فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة وكمالها الورع فضيلة القوة الشهوانية.

كذلك وضع الغزالي دستور الأسرة، فهو يقدر أنّ سيادة البيت للرجل، وبدون تلك السيادة لا تستقيم الحياة ولا توجد السعادة، وقد جعل الله تعالى الزوج سيدا فقال تعالى: «وألفيا سيدها لدى الباب.[3]كذلك أمر الغزالي الرجل أن يكون بشوشا مرحاً مع زوجه، ودعا إلى الاعتدال في الغيرة وكذلك دعا إلى ضرورة تعليم المرأة.

ثانيا: وضع منهاج للتربية والتعليم.

لقد أولى الغزالي ميدان التعليم اهتماما كبيراً والعلم عند الغزالي من أهم العوامل

1- طه عبد الباقي سرور: الغزالي 87

2- زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي ص 160

3- سورة يوسف ، أية 25 .

في تحقيق تلك التربية، لما له من عظيم الأثر في نفسية التلميذ، ومدى تحصيله، وبناء شخصيته وسلامة مسلكه، سواء أكان ذلك بحكم القدرة وأثرها، أم بفضل العالم على الجاهل، وما يتمتع به ذلك العالم من سعة في مجتمعه، أو بحكم الارتباط القوي بينهما، ويرى الغزالي أن النظام المتبع في المدارس نظام فاسد الأهداف والغايات ولا يركز على أهداف الرسالة الإسلامية، وإنما غايته تخريج موظفين للدولة يتولون مناصب القضاء والإفتاء والأوقاف ممن وصف الغزالي بأنهم علماء دنيا لا علماء آخرة. ويرى الغزالي أنه لا بد من تكامل العلوم الإسلامية لتشكل نهوضاَ إسلاميا شاملا كي تخرج جيلا من علماء الآخرة.

ولأهمية هذا الموضوع وضع الغزالي باباً في الأحياء أطلق عليه «أدب المعلم والمتعلم ».

ثالثاً: العمل على إيجاد جيل جديد من العلماء.

يرى الغزالي بأنّ العلماء هم أطباء الأمة، فإذا فسد الأطباء فسدت الأمة، «الداء العضال فقد الطبيب، فإنّ الأطباء هم العُلماء وقد مرضوا في هذا العصر مرضا شديد عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء» .

وقد وضع الغزالي شروطاً وصفات للعلماء الذين يقومون بوظيفة تطبيب الناس منها:[1]

- أنْ لا يطلب العالم الدنيا بعلمه.
- أنْ تكون عناية العالم بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات.
- أنْ يكون العالم غير مائل للترف في المطعم والمشرب والأثاث.
- أنْ يكون العالم بعيداً عن تأثير السلطان.

1- ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص 115

- أنْ لا يكون مسارعا إلى الفتيا.[1]

ولقد أسهب الغزالي في تحديد صفات العلماء المطلوبين لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وميز بين علماء الآخرة وبين علماء الدنيا «علماء السوء»

رابعاً: وضع منهاج في الإدارة الحكومية.

وذلك من خلال تبيان أهمية العدل وسياسة السلطان والوزراء في كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك.

خامساً: إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهي المهمة التي ابتعث الله الأمة الإسلامية من أجلها. ولذلك نراه يركز على هذا الموضوع الخطير بل نجد معظم كتبه تتناول هذا الموضوع الخطير, ولا سيما في كتابه إحياء علوم الدين.

سادساً: نقد السلاطين الظلمة.

يرى الغزالي أن معظم السلاطين في عصره ظلمه، متعدين لحدود الله ويحرم على العلماء المخلصين الاختلاط بهم أو التعامل معهم حتى يفيئوا إلى شرع الله وقد أورد ذلك في فصل خاص في الأحياء، بعنوان: النظر في السّلطان.

سابعاً: مُحاربة التيارات الفكرية المنحرفة:[2]

حارب التّعصب المذهبي من اجل تصحيح مسار الفكر الإسلامي، وحارب الباطنية، والفلاسفة في كتابين هما فضائح الباطنية وتهافت الفلاسفة.

وبعد فهذا هو الغزالي ومنهجه الذي اشتهر به، حتى أنني أستطيع أن أقول عنه أنّه فريد في منهجه الإصلاحي، والذي تميز بالشمول والعمق، نظرية « النّهوض

1- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 51/4

2- ماجد عرسان الكيلاني: وهكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص 114.

الشمولي». ولقد استطاع الغزالي بتفكيره العميق هذا أن يستحق لقب « حجّة الإسلام « الذي انفرد به.

وأخيراً فإنّ هذا المنهج الذي سار عليه الغزالي في الوصول إلى المعرفة والمناهج التي اتبعها في سبيل ذلك، كذلك ميادين الإصلاح التي سار عليها تعتبر بحق منهج سليم تحتاجه الأمة في هذا الظروف التي تعيشها والتي تمثل الانحطاط والجمود والتبعية والركود والتشرنق والتحزب، إضافة إلى ذلك فإنّ الظروف التي أحاطت بالغزالي، والعصر الذي عاش فيه يتشابه إلى حدّ كبير مع الظروف والأوضاع التي تعيشها. وفي ذلك تكمن أهمية هذا البحث.

الخاتمة ونتائج البحث

وبعد، فهذا هو أبو حامد الغزالي، العالم المجدد الذي عاش عصر اضطراب وفتن وقلاقل، واختلاف كبير بين المذاهب الإسلاميّة. هذا الواقع السلبي لتلك الفرق والجماعات أدى إلى صراعات سياسيّة وفكريّة، مما مهد لضعف الأمّة وانقسامها، وتمكن الإفرنج منها، واحتلوا المشرق الإسلامي، واستولوا على القدس الشريف.

وقد أظهر هذا البحث التشابه الكبير بين الواقع المزري الذي تعيشه أمتنا العربيّة والإسلاميّة، وبين الظروف التي عاشها هذا العالم. إنّ المنهج القويم الذي سار عليه أبو حامد الغزالي، أسهم في تغير حال الأمّة من الضّعف والانقسام، إلى القوّة والانتصار. وهو ما نحتاجه، ليكون مشروع الأمّة في هذه الأيام. وهذا المنهج يرتكز على ما يأتي:

- هناك تشابه كبير -كما أسلفنا- في الظروف التي تعيشها أمّتنا العربيّة والإسلاميّة حاليّا، وبيّن الأوضاع التي عاشها أبو حامد الغزالي .
- الأصل في المذاهب الإسلامية أن تجمع العلماء، والدعاة والمفكرين، للحوار والنقاش، والبحث عن أنجع السبل وأصوبها، لإخراج الأمّة من الحالة السلبيّة إلى الحالة الايجابيّة.
- إنّ الصراعات المذهبية والتّعصب المقيت بين الفرق والمذاهب الإسلاميّة، أوصل الأمة إلى حافّة التشرذم والانقسام والهزيمة.
- لا بد من الاستفادة من المنهج الذي سار عليه أبو حامد الغزالي الذي يقوم على محاربة التعصب المذهبي، ونقد السلاطين الظلمة.
- بيّن هذا البحث أنّ العلماء والمفكرين لهم الدور الأكبر في نهوض الشّعوب والأمّة .أمّا تقاعس العلماء في رسالتهم، فيؤدي إلى فساد الأمّة.
- لا بد من العمل على تقريب الجماعات والمذاهب وإخراجها من حالة التّفسخ، والتّبعية، لتكوين جماعة الأمّة، التي تمهد لقيام دولة الخلافة الرّاشدة المنشودة.
- أثبت الواقع أنّه لا مكان للكيانات، والدّويلات الضّعيفة في زمن تصارع

الكبار، كما نرى اليوم من تجمّع دول أوروبا تحت إطار واحد، وما فعلته الولايات الأمريكية وغيرهما.

- وأخيراً، فعلى الجميع الابتعاد عن الحزبية المقيتة، والحكم الشمولي المطلق. وما نراه اليوم من واقع الثورات العربية وربيعها، يبشر بالخير، وأنّ فجرا جديدا بدا يلوح في الآفاق. ويؤكد أنّ تضافر الجهود المخلصة والصّادقة، هو الكفيل بالخروج من الحالة السلبيّة إلى الايجابيّة، ومن الهزيمة إلى الانتصار.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن أبي الفضائل، محمد بن مالك، ت 470هـ / 1077م، كشف أسرار الباطنية، القاهرة، مكتبة ابن سيناء، 1988م.
3. ابن الأثير، على بن محمد،ت630هـ/1232م، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979، 13ج.
4. - التاريخ الباهر، الدولة الأتابكية، القاهرة، دار الكتب الحديثة 1963.
5. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، ت874هـ 1470م، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، وزارة الثقافة القومية والإرشاد، القاهرة، مؤسسة المعدية للتأليف والترجمة، (19-).
6. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت 597هـ/1200م، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992/1412.
7. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد، ت 1283/681 ، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1398 / 1978، 8ج.
8. ابن عساكر، علي بن الحسن، ت 571 هـ / 1175م، تبيين كذب المفتري، دمشق مكتبة المقدسي، 1374 هـ.
9. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت471هـ / 1372م، البداية والنهاية، بيروت مكتبة المعارف، 1985، 14ج.
10. أبو حامد الغزالي، الإمام أبي حامد بن محمد الغزالي، ت505 هـ / 1111، أحياء علوم الدين، بيروت دار المعرفة، 982، 4ج.
11. - فيصل التفرقة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986
12. - القسطاس المستقيم، بيروت، دار الكتب العلمية، 983.
13. - المنقذ من الضلال، بيروت، دار الكتب العلمية، 1988.
14. أحمد فريد، كتاب الغزالي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (19-م).
15. بدوي، عبد المجيد، التاريخ السياسي والفكري للسنة في الدولة العباسية، الإسكندرية، دار الوفاء للطباعة والنشر، 1983.
16. الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، ت748 هـ / 1173م، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤط وآخرين، بيروت مؤسسة الرسالة، 1992، 25ج.
17. السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن محمد، ت 771 هـ / 1969 م ، طبقات الشافعية، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، 1965، 4ج.
18. سرور، طه عبد الباقي، الغزالي، دار المعارف، (19-).
19. القرضاوي، يوسف، الغزالي، المنصورة، دار الوفاء، (19-).
20. الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1985.
21. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، ت 450هـ / 1058م، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت دار الكتب العلمية، (19-).
22. مبارك زكي، الأخلاق عند الغزالي، القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1924.
23. النعيمي، عبد القادر بن محمد، ت 978 هـ / 1570م، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت دار الكتاب الجديد، 1981، 2ج.

السيرة الذاتية

الدكتور جبر خضير البيتاوي

- الاسم: جبر سليمان خضير البيتاوي
- مكان الولادة: بيتا - نابلس - فلسطين.
- تاريخ الميلاد: 1956/10/8م.
- الجنسية: فلسطينية.
- الحالة الاجتماعية: متزوج، وله ستة أولاد.
- الوظيفة الحالية: أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة النجاح الوطنية.

-عنوان البريد الالكتروني:

email: jaberba@najah.edu

jaberkba@yahoo

الشهادات العلمية التي حصلت عليها:

- الدكتوراه في الآداب والنقد، جامعة القديس يوسف - بيروت، لبنان 1994م.
- بعثة علمية إلى جامعة بون- ألمانيا، 1993.
- الماجستير في اللغة العربية وآدابها، القاهرة معهد الدراسات الإسلامية العالية 1989م.
- دبلوم عالٍ في الدراسات الإسلامية، القاهرة - معهد الدراسات الإسلامية العالية، 1982.
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها - جامعة عين شمس/القاهرة، 1979.
- الثانوية العامة، أدبي، مدرسة حوارة الثانوية، 1975م.

الخبرات العملية:

- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية،

نابلس.

- مؤسس ومشرف منتدى الإبداع الثقافي في جامعة النجاح من عام 2004-2007.
- التدريس في كلية هشام حجاوي التكنولوجية جامعة النجاح الوطنية، 2002-2005.
- التدريس في جامعة القدس المفتوحة (غير متفرغ) منذ عام 1997 -2001.
- رئيس قسم اللغة العربية بالوكالة في عام 1992م، وفي عام 1995.
- مدرس غير متفرغ في كلية مجتمع النجاح الوطنية- نابلس، 1982-1988.
- موظف إداري في جامعة النجاح الوطنية - المكتبة، 1982-1988.
- محرر صحفي في مجلة صوت الخليج، الكويت 3 سنوات، 1979-1982م.
- مدرس في مدارس الكويت الثانوية: 3 سنوات في الفترة 1979-1982م.

- **الرسائل العلمية:**

1. رسالة ماجستير، بعنوان: التيار الإسلامي في الشعر الفلسطيني المعاصر 1967-1988م. دراسة نقدية، القاهرة، معهد الدراسات الإسلامية العالية، 1988م.
2. رسالة الدكتوراه بعنوان: الحروب الصليبية من خلال الشعر في مصر والشام 492هـ - 583 هـ دراسة تحليلية جامعة القديس يوسف، كلية الآداب فرع الآداب العربية، بيروت 1994م.

- **الكتب المنشورة:**

1. كتاب اللغة العربية مقرر دراسي، تأليف مشارك، 2004.
2. مذكرة في المكتبة العربية، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 1986.
3. مقدمة في اللغة والأدب، ونصوص مختارة، نابلس، مطبعة النصر، 1415هـ/1995.

الأبحاث والمؤتمرات العلمية

- نحو منهجية لدراسة النص الأدبي: قيد النشر.
- منهج المعرفة عند الغزالي ودوره في نهوض المسلمين، قيد النشر.
- النحت والتصوير من منظور إسلامي ، جامعة بيت لحم قيد النشر.
- الغناء والموسيقى الشعبية من منظور إسلامي، المؤتمر العلمي الفني الفلسطيني الأول، جامعة النجاح الوطنية، كلية الفنون، 2009/10/6م.
- مستقبل بيت المقدس من منظور إسلامي، ص237-266، كتاب مؤتمر يوم القدس الثامن، جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب، 2007م.
- أحد عشر كوكباً للشاعر محمود درويش دراسة منهجية، في مؤتمر النقد الأدبي السابع، جامعة اليرموك، تموز 1999م.
- ورقة بعنوان موقف الإسلام من الفنون، ندوة الإسلام والفنون، كلية الفنون، جامعة النجاح الوطنية، 2006/3/7.
- ورقة بعنوان موقف إيران من القضية الفلسطينية، ندوة في جامعة النجاح الوطنية، بعنوان إيران والقضية الفلسطينية، 2006.
- نابلس في كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين، بحث مقدم إلى ندوة نابلس بين الماضي والحاضر، جامعة النجاح الوطنية - كلية الآداب- قسم التاريخ.
- مفهوم الجهاد عند صلاح الدين الأيوبي، بحث مقدم إلى الندوة الرابعة ليوم القدس، جامعة النجاح الوطنية - كلية الآداب، 1998م.
- جهود علماء جماعيل في عصر الحروب الصليبية، بحث مقدم إلى ندوة البلدان الفلسطينية، جامعة النجاح الوطنية - كلية الآداب - قسم اللغة العربية، 1996م.
- وصف أحوال المسلمين والفرنج من خلال رحلة ابن جبير، بحث مقدم إلى ندوة يوم القدس الأولى. جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب، 1995.
- رجال البلاد في شعر إبراهيم طوقان، بحث مقدم إلى ندوة إبراهيم طوقان،

جامعة النجاح الوطنية - كلية الآداب- قسم اللغة العربية. 1993م.

- صدى الاحتلال الصليبي لبيت المقدس في شعر مصر والشام، مؤتمر بعنوان الحروب الصليبية في فلسطين، جامعة بير زيت، 1992.
- صورة العربي في شعر الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ندوة بعنوان، أدب الانتفاضة. الفلسطينية، جامعة النجاح الوطنية، 1992.

- **المقالات والتحقيقات في الجرائد والمجلات:**

- مسلسل يوسف الصديق، جريدة القدس، 2010.
- السلام المزعوم، جريدة القدس، 2010.
- ملخص بحث بعنوان أدب الخوارق والكرامات. جريدة القدس، 2008.
- الحرب والمصارعة على الطريقة الأمريكية. مقال نشر في عدة مواقع.
- أحلام الواقع، مقال منشور في جريدة القدس، بتاريخ 4/12/2001م.
- حرب على الإسلام لا على الإرهاب، جريدة القدس، 1/12/2001م.
- عشرات المقالات والتحقيقات المتنوعة في الشؤون المحلية والسياسية والمقابلات في مجلة صوت الخليج - الكويت وجريدة القبس في الفترة ما بين 1982-1979م.

- **الأعمال التلفزيونية:**

- إعداد وتقديم أربعين حلقة دينية في تلفزيون نابلس، 2008.
- إعداد وتقديم أكثر من مائة حلقة تلفزيونية بعنوان: مع القرآن الكريم في تلفزيزن الجلاء في الفترة ما بين 1999-1997م.
- ولقاءات متنوعة مع تلفزيون نابلس وآفاق وغيرهما.